الفصل التاسع عشر:
هل كان ظاهر العمر استقلالياً؟

رضوى عبد القادر

بعد أن هلَّ القرن السادس عشر، بستة عشر عاماً، غدت جميع الأقطار العربية - ماعدا مراكش وأواسط الجزيرة العربية، وعُمان - خاضعة للسيطرة العثمانية، فاستطاعت الإمبراطورية العثمانية منذ ١٥١٦ - ١٦٣٨، أن تسيطر على هذة الأقطار مجتمعة، على نحو متصل، قبل أن تتقطع هذه السيطرة في الزمان.

العثمانيون:

استهوى العثمانيون في الأقطار العربية، موقعها الملائم لطرق التجارة العالمية؛ فسعى العثمانيون إلى إيجاد سندهم في البلاد العربية، باحتفاظهم بالنظام الاجتماعي، السائد في الأقطار الخاضعة، حين افتتاحها، وبقيت الأرض والسلطة، كالسابق، في أيدي الإقطاعيين المحليين. أما المدن العربية، فغدت مراكز إدارية، تربع فيها الباشوات، والبكوات الأتراك، أكثر من أن تكون مراكز اقتصادية. أما عن نظام الدولة، فكانت القومية التركية هي السائدة في الإمبراطورية العثمانية [١].

العثمانيون هم من جيل التتر " القبيلة الطورانية "، سكنوا حدود الصين، ثم زحفوا إلى تركستان، فتجنبهم الأكاسرة، فلما فتح العرب إقليمهم، احتك الأتراك بهم، ودانوا بدينهم الإسلامي، في القرن الحادي

عشر. وفي عام ١٢٨٨م، بدأت نواة الدولة العثمانية تتشكل، في الأناضول، على أصل الدولة السلجوقية، وامتد جذرهم إلى البلقان، وفينا، عاصمه النمسا، وامتلكوا العراق، وسوريا، ومصر، وإيران، وشمال البحر الأبيض، وارتبط الأتراك بالعرب، عن طريق اللغة العربية، وزياراتهم للبلاد العربية، لأداء فريضة الحج [٢].

في أواسط القرن السادس عشر، وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى ذروة قوتها، داخلياً وخارجياً. وفي نهاية هذا القرن، وبداية القرن الثامن عشر، بدت علامات تراجع تلك الإمبراطورية؛ بسبب تورط الإمبراطورية العثمانية في مواجهة مع روسيا، العدو الخطِر، خاصة في عهد القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥م)، والقيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦م).

كان لهزائم الدولة العثمانية الخارجية أكبر الأثر في ظهور رأس محلية حاكمة، في عدد من الولايات العربية، مثل آل العظم في الشام، والزيادنة في فلسطين ومن ناحية أخرى، فقد كان التمزق السياسي الداخلي في لبنان، وانشغال ولاة دمشق بمرافقة قافلة الحج الشامي، من أكبر العوامل التي ساعدت على ظهور الزيادنة، خاصة ظاهر العمر.

الزيادنة:

ظهرت إمارة الزيادنة، أوئل القرن الثامن عشر، في منطقة الجليل بفلسطين، حيث وجود قبائل صغيرة دعمت الزيادنة، عن طريق التحالف والتزاوج، ونظرًا لأن إقامة إمارة الزيادنة، وتحصُّنها في القلاع، وتحديها العسكري للولاة العثمانيين تقتضى تطوير طاقتها العسكرية، واستخدام

الجيوش المحلية المرتزقة للدفاع عنها، فإن الإمكانات الاقتصادية المتاحة لهذه الأمارة، تصبح ذات أهمية كبيرة. وقد أفادت فلسطين، وأميرها، آنذاك، ظاهر العمر، من اهتمام الفرنسيين بالمتاجرة معها، ومن شراء الفرنسيين للمنتجات الفلسطينية، بالسعر الذي يحدده العمر، حيث جمع ثروة كبيرة، مكَّنته من تحصين عكا، وبقية قلاعه، ومن استئجار جنود مرتزقة، للدفاع عن إمارته [٣].

اختلفت المراجع في أصل الزيادنة، لكن الغالبية تقول بأنهم بدو من الحجاز، جاءوا في الفتح الاسلامى الصلاحي، وكانت إقطاعاتهم، خمس قرى، هي بيت إكسا، والنبي صموئيل، والجيب، وبيت نبالا، وبيت حنينا. فسكنوا في الأولى ثم رحل زيدان الجد، ونزل في شفا عمرو، فأكرمه محافظ القلعة، وظل زيدان يتقدم، إلى أن تعين ولده، عمر، على عكا، ثم خلفه ابنه، ظاهر، فاتفق مع المتاولة، حكام صور، وبلاد بشارة، وخالف الدولة، فسيَّر إليه والي دمشق، كما سنرى [٤].

المُلاحِظ لحكم ظاهر، يجد بأن سنوات حكمه يمكن أن تقسم إلى ثلاث فترات: أولاها، فترة توطيد سلطته ومقاومته حملات والي دمشق، سليمان باشا العظم، ضده، حتى توفي العظم، وهى يحاصر ظاهر، في طبرية، وبلغت في الفترة الثانية، سلطة ظاهر العُمر الأوج، بين عامى ١٧٤٣ - ١٧٦٠م، أما الفترة الثالثة، فامتدت إلى ١٧٧٥م، وشهدت اشتداد ثورات أبناء ظاهر عليه، ومحاولات والي الشام، عثمان باشا الكرجي، إخضاعه، وتحالف ظاهر مع قائم مقام مصر، علي بك الكبير، واحتلا سوياً دمشق، في عام ١٧٧١م.

الفترة الاولى:

عمد ظاهر، في الفترة الأولى من حكمه، إلى توسيع المناطق التي يستولي عليها، وتحالف مع الزعماء المحليين الرئيسيين، وضم هؤلاء عددًا من القبائل، مثل بني صخر، وبني صقر، والسردية، الذين تزوج ظاهر منهم، ليرسِّخ تحالفه معهم. وقد أفاد، بادئ الأمر، من هذا التحالف، بسبب دعم القبائل له، على أن هذا التحالف سرعان ما أصبح سلبيًا، حيث تنافس أولاد ظاهر، فيما بينهم، كما ثاروا على أبيهم، خاصة وأنهم ينحدرون من أمهات ينتسبن إلى القبائل المتنافسة [٥].

كان بدو بني صقر، الذين تحالف معهم ظاهر، يقيمون، آنذاك، في صنجقيْ اللجون، وصفد. لكن ظاهر، في محاولته إقامة الأمن - كما تعهد لوالي صيدا - اصطدم مع خلفائه الخارجين على القانون، وفي طليعتهم بني صقر، فتحول هؤلاء عن التحالف معه، إلى دعم أعدائه، آل ماضي، وآل جرَّار، زعماء منطقة نابلس، الموالين لوالي دمشق، المسؤول عن مناطقهم[٦].

احتاط ظاهر للأخطار المحيطة به، فقام بتحصين قلعة طبرية، وتقوية دفاعاته فيها، وقد قام، والي دمشق، سليمان باشا العظم، بحملة ضد ظاهر، في عام ١٧٣٧م، بالتعاون مع بني صقر، بسبب اعتداء ظاهر على آل ماضي، وآل جرَّار، وأسر أحد اخوة ظاهر، صالح، وشنقه في دمشق [٧].

بين عامي ١٧٤١ - ١٧٤٢، حين عُين سليمان باشا العظم، للمرة الثانية، على ولاية الشام، استأنفت حملاته العسكرية على ظاهر، الذي

كان يتحصن في قلعتي، طبرية، ودير حنا، حيث شن العظم حملته ضد ظاهر، في ٣ أيلول /سبتمبر ١٧٤٢، بمناسبة خروجه في الدورة، لجمع الضرائب من الملتزمين في ولايته، ومن أجل تمويل قافلة الحج. ودام حصار قلعة طبرية ثلاثة أشهر متصلة، لكن الفشل كان حليف سليمان باشا، وأمكن لظاهر أن يتلقى المؤن. وعندما حان موعد خروج قافلة الحج الشامي، رفع سليمان باشا الحصار، وعاد إلى دمشق لقيادة القافلة بنفسه[٨].

استغل ظاهر انسحاب سليمان باشا، حتى يقوي الأول نفسه، عسكرياً وسياسياً، إلى أن شن سليمان باشا حمله ثانية على ظاهر، في آب / أغسطس ١٧٤٣، بدعم من القوات العثمانية في المنطقة، بناء على أوامر السلطان، وتوجه للاستيلاء على قلعة دير حنا، بقصد تحقيق هدفين، أولهما إحراز كسب سهل على الزيادنة، لتحطيم معنوياتهم، وثاني الهدفين قطع الاتصال مع طبرية [٩]، لكن سليمان باشا توفي، في قرية لوبية، قرب طبرية، وبذلك فشلت الحملة.

الفترة الثانية:

أما عن أسعد باشا العظم - الذي خلف سليمان باشا في ولاية الشام، على مدى أربعة عشر عاماً متصلة - فقد أخذ موقف اللامبالاة من ظاهر، مما أفاد الأخير في بناء قوته، وتوسيع تجارتة.

فقد شهدت الفترة الثانية من حكم ظاهر نشاطاً كبيراً في التجارة، تجلى في تسويق المحاصيل، خاصة القطن. وأعطى والي صيدا، في عام ١٧٤٦، التزام عكا إلى ظاهر، فتضايق التجار الفرنسيون؛ لأن ظاهر

أصبح يتحكم بأحد الموانئ الرئيسية في فلسطين، وبأهم مركز للتجارة الفرنسية فيها، وانفرد بتحديد سعر القطن بنفسه، حتى " اضطر الفرنسيون إلى مصالحته، ووقعوا معه، في عام ١٧٥٣، اتفاقية تنظيم التجارة بين الطرفين " [١٠].

مد ظاهر نفوذه، والتزامه، ليشمل مدينة يافا، التابعة لوالي دمشق، بالإضافة إلى مناطق أخرى، منها قرى عده في منطقة نابلس، وبلاد حارثه، وجبل عجلون [١١] لكن عكا كانت أهم كسب حصل عليه ظاهر، بالرغم من ان مسئولية الدفاع عنها كانت كبيرة، ولعل ما يدل على أهميتها بالنسبة لظاهر أنها برزت في الألقاب التي اتخذها، مثل " ضابط عكا وبلادها "،

أو " ضابط عكا وبلاد الجليل "، واستخدم ظاهر هذه الألقاب، في مراسلاته، وبخاصة مع السلطات الفرنسية في باريس [١٢].

الفترة الثالثة:

تؤكد ارتفاع سلطة الفرد في مجال ما، في أي زمان ومكان، على ظهور أعداء له، يصارعونه على هذه السلطة، ويحاولون كسر شوكته، وأصبح هذا طبيعياً، ولكن من غير المنطقي أن يكون هذا العداء من قِبل الأبناء.

فقد أدى ازدياد سلطة ظاهر، واتساع المناطق التي يسيطر عليها، وتعيين أبنائه حكاماً فيها، إلى ظهور بوادر شقاق داخل أُسرته، سواء بين الأبناء، بعضهم البعض، أو بين ظاهر وأبنائه، وكان السبب الرئيسي في ذلك الخلاف، طمع الأبناء في الاستحواذ على مناطق أُخرى، لتصبح

ضمن حكمهم، وساعد الأبناء على ذلك كونهم من أُمهات ينتسبن إلى قبائل معادية لبعضها البعض.

بقيت تلك الخلافات على نطاق ضيق، في خمسينيات القرن الثامن عشر، لعدة أسباب، منها حداثة عهد أبناء ظاهر بالحكم، وإعلان سليمان باشا العظم عدائه لظاهر، مما أسفر عن التفاف أبنائه حوله، يضاف إلى ذلك الذهول، والشعور بالمصيبة، اللذان أصابا السكان في أعقاب الكوارث الطبيعية المدمِّرة، المتمثلة في سلسلة من الزلازل، أصابت بلاد الشام، في عام ١٧٥٩، وأعقب ذلك الطاعون، الذي أفنى عشرات الآلاف من الأهالي[١٣] في الستينيات، استؤنفت حركات تمرد أبناء الظاهر ضده، بعد أن فشل والي الشام، عثمان باشا الكرجي، في إخضاع ظاهر لسلطته، في مطلع ولايته، وكان ظاهر قد عيَّن أبناءه حكاماً على المناطق الخاضعة لسيطرته، فأعطى طبرية إلى ابنه الأكبر صلبيي، وصفد إلى عليّ، وشفا عمرو إلى عثمان، وصفورية إلى سعيد، وجبل عجلون إلى أحمد[١٤].

في عام ١٧٦٢، ثار عليّ على أبيه، الظاهر، ودعمه إخوته من أُمه، ووالي الشام، عثمان باشا الكرجي، والشيخ ناصيف النصار، زعيم أحد جناحيْ الشيعة المتصارعين. في حين وقف إلى جانب ظاهر الشيخ قبلان، زعيم الجناح الشيعي الآخر، وانتهت هذه " الثورة " بالمصالحة. وفي عام ١٧٦٥، ثار عثمان، محتجاً على الامتيازات التي حصل عليها أُخوة عليّ، وتمكن ظاهر من القبض على عثمان، وسجنه ستة أشهر، ثم وضعه تحت الإقامة الجبرية، لكنه هرب إلى الشيعة، ودعمه الشيخ

النصار، وشن هجمات عدة، لمدة سنة، تقريباً، على المناطق التي يحكمها ظاهر، وأثر ذلك المواصلات بين عكا، وصيدا، كما تضرر الريف. وتدخل الأمير منصور الشهابي، وعدد من أعيان جبل لبنان، وأصلحوا بين الفريقين المتخاصمين[١٥].

في عام ١٧٦٧، تمرد عليّ، مرة أُخرى، على أبيه، ومعه أخوه سعيد، مطالبين بإضافة مناطق أُخرى إلى حكمهما، وحرضهما الكرجي على الثورة، كما أيدهما الشيخ النصار، وطلب ظاهر دعم والي صيدا، محمد باشا العظم، عدو الكرجي. وهدف ظاهر من ذلك، كما يبدو، الحصول على دعم رسمي، وإسباغ الشرعية على موقفه، وتعميق العداء بين الواليين، وتكتيل القوى المؤيدة له. وكالعادة، تصالح ظاهر مع ابنيه، بعد شهر من تمردهما الجديد [١٦].

في أواخر عام ١٧٦٧، هدأت حدَّة العلاقات بين ظاهر وأبنائه، كما تصالح ظاهر مع الشيخ النصار، إلا أن الخلاف العدائي بين ظاهر والكرجي لم ينته. وكان أول اصطدام بين ظاهر والكرجي، حين قام الأخير، بعد شهرين من تعيين والياً على دمشق، بالدورة لجمع أموال الميري، فاحتل قلعة الطنطورة، التي استولى عليها ظاهر، وكانت تتبع دمشق، لكن ظاهر عاد إلى احتلالها، بعد انسحاب عثمان باشا منها [١٧].

حاول الكرجي استعادة حيفا، التي كان ظاهر يلتزم ضرائبها، ويحكمها، لكن الكرجي فشل في احتلال حيفا، أو عكا، حيث استفادت الأولى من النمو الاقتصادي للثانية، وفي محاوله ثانية، نجح الكرجي، أواخر ١٧٦١، في احتلال قلعة عكا، قرابة العام، فتنبه ظاهر إلى

ضرورة تحصين عكا، وجعلها مركزه البحري الرئيسي. من جهة أُخرى، واجه الكرجي ثورات فلاحيه ضده، من المناطق الفلسطينية، بسبب اتباعه سياسة ابتزاز الأموال، وبطش عثمان باشا بالثائرين، ولجأ بعضهم إلى حليفهم، ظاهر العمر [١٨].

حكم عليّ بك الكبير (٧٦٠ - ١٧٧٣م)، في مصر، حيث كان الحاكم الفعلي لهما (شيخ البلد)، والنائب الرسمي (قائم مقام) للحاكم العثماني، المتغيب عنها، واستغل عليّ بك انشغال الدولة العثمانية بالحرب مع روسيا (١٧٦٨ - ١٧٧٤)، ليقوم بهجومه على بلاد الشام؛ بذريعة الإطاحة بعدوه، عثمان باشا الكرجي، وإن كانت حملة عليّ بك على بلاد الشام، في الواقع، محاولة مملوكية لإقامة السلطنة الملوكية، من جديد [١٩].

كان لظاهر وقواته، وكذلك لشعب فلسطين المعادي لعثمان باشا، دور مهم في انتصارات قوات عليّ بك، التي اندفعت إلى فلسطين، من البر والبحر. واستسلمت لها غزة، والرملة، في عام ١٧٧٠، دون مقاومة تذكر. كما استثار عليّ بك الكبير أهالي الشام، في بيان له إليهم، جاء فيه، بأن عثمان باشا " أذل الأماكن الشريفة... وتعدى حدود الدين، وفعل ما لا يليق بالمسلمين... وبلغكم ما فعله بعلماء غزة، وأذاقهم الذل بعد العزة " [٢٠]. وأعلن علي بك " إلغاء ضريبة الميري، لأربع سنوات، في جميع أنحاء فلسطين، وهو ما شجع مناطق، ومدناً أُخرى على إعلان ولائها له " [٢١].

لم يؤيد الكرجي سوى آل جرار، وبدو بني صقر، وبني صخر،

وجميعهم، كما سبق، من أعداء ظاهر. ودخلت قوات الكرجي مدينة يافا، في ١ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٧٠م، إلا أن الكرجي اضطر إلى التراجع، واخلاء المدينة، في التاسع من الشهر نفسه، عقب لقاء قوات ظاهر مع قوات علي بك، التي كان يقودها اسماعيل بك، كما انضمت إلى هذين الحليفين قوات شيعية، أيضاً، وقد احتلت القوات الحليفة يافا، وكان لذلك أهمية استراتيجية كبرى، لأن التعزيزات في العتاد والجنود، القادمة من دمياط، بحراً، كانت تصل إلى عكا ويافا [٢٢].

من ١٨ كانون الأول / ديسمبر ١٧٧٠ حتى أول شباط / فبراير، توقفت عمليات الحملة، بسبب مرض ظاهر. وظهر، في هذه الأثناء، تعارض وجهات النظر بينه وبين إسماعيل بك، حيث أصر ظاهر على مهاجمة الكرجي، الذي خرج من دمشق، على رأس قافلة الحج الشامي، في ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٧٧١، في حين عارضه إسماعيل بك، خشية على الحجيج، فتشكى ظاهر إلى علي بك من سلوك إسماعيل بك، فأرسل الثاني قوات إضافية، وقائداً جديداً للحملة، هو مملوكه المتميز، محمد بك أبو الذهب، الذي سبق أن قاد قوات عليّ بك في القضاء على خصومه، وفي الحملة على الحجاز [٢٣].

في ١٧ أيار / مايو ١٧٧١، وصل أبو الذهب، وقواته إلى الرملة، وطغى على ظاهر، بنفوذه، وقوته العسكرية، وقرَّبه من علي بك، ونجحت قوات ظاهر، إلى جانب قوات أبو الذهب، والشيعة، في إلحاق الهزيمة بطلائع القوات العثمانية، في سعسع، على مشارف دمشق، فلاذ المقاتلون العثمانيون بالفرار مثلما فعل والي الشام، عثمان باشا الكرجي

(٢٤).

على غير انتظار، وقعت المفاجأة المحيِّرة، حيث انسحب أبو الذهب من دمشق، بعد احتلال دام عشرة أيام، فقط، فأدهش الأهالي المحليين، وحلفاءه، وأعداءه، على حد سواء، ومما لاشك فيه أن ذلك أحرج موقف ظاهر، عسكرياً، وسياسياً، وكشف جناحيه. ظهرت مؤشرات كثيرة على تواطؤ أبو الذهب مع العثمانيين، الذين وعدوه بولاية مصر، محل علي بك(٢٥).

إثر انسحاب أبو الذهب إلى مصر، حدث صراع على النفوذ في بلاد الشام الجنوبية، كما طلب ابن جرار، المحاصر في قلعة سانور، من قبل ظاهر، الدعم من عثمان باشا، الذي عاد إلى دمشق، فخف لنجدته، لكن ظاهر هزمه، قرب الحولة، في ٢ ايلول / سبتمبر ١٧٧١ (٢٦).

أعد ظاهر عدته وعدده، من أتباعه في فلسطين، والمتاولة، والشيعيين، الموالين له، ومن مماليك علي بك، وسار إلى لقاء العثمانيين، ودارت على الساحل، قرب صيدا، معارك عنيفة، أسهم فيها الأسطول الروسي، انتهت بانتصار ظاهر، في أيار / مايو ١٧٧٢ الذي بطلب منه ومن علي بك، قصف الأسطول الروسي، مدينة بيروت، في ١٨ حريزان / يونيو ١٧٧٢، لكن بضغط وإغراء مالي من الأمير يوسف الشهابي، الذي كان يحكم بيروت، آنذاك، انسحبت القوات الروسية من بيروت، في ٢٣ من الشهر نفسه، وكان ظاهر قد صد وحلفاؤه من المماليك والشيعة، في ١١حريزان/يونيو، حملة مشتركة من أتباع الأمير يوسف، والعثمانيون، قرب صيدا. لذا طلب الأمير يوسف إلى قائد القوات

العثمانية، عثمان باشا الوكيل، أن يرسل قوة إلى بيروت، للدفاع عنها، وكان من بين أفراد هذه القوة، أحمد بك الجزار [٢٧].

أخذ الجزار يعمل لحسابه، في بيروت، بمعزل عن الأمير الشهابي، فاتجه الثاني نحو أعدائه السابقين، ظاهر والشيعة، وتحالف معهم، في ٩ حزرن / يونيو ١٧٧٣، وطلب هؤلاء الحلفاء من الأسطول الروسي إعادة مهاجمة بيروت، لإخراج الجزار منها. فمهاجمها، وهرب الجزار، ملتجئاً إلى ظاهر، ثم إلى دمشق [٢٨].

نعود إلى أبى الذهب، وعليّ بك الكبير، حيث هزم الأول والثاني، شرقي الدلتا (في الصالحية)، وأصيب عليّ بك بجُرح قاتل، (ردد بعض المؤرخين أنه مات مسموماً، في عام ١٧٧٣)، وتابع أبو الذهب السير بقواته إلى سورية، في عام ١٧٧٥؛ لمحاربة الشيخ ظاهر، حيث انضم عثمان بن ظاهر، مع بعض الزيادنة، إلى أبي الذهب، وحوصرت يافا، وقاوم أهلها الغزاة، حتى لانت نفوس المغاربة، فسهَّلوا دخولهم إلى المدينة، حيث عاث الجند فساداً، في النساء والأموال، وأهرقوا دماء الأبرياء، مما ادخل الهلع إلي قلب ظاهر، بعد أن أبى يوسف الشهابي مساعدته، وهدم أبو الذهب ديرين للنصارى، في يافا، وقتل رهبانهما، ثم سار إلى عكا، واستقبل وفود يوسف الشهابي، ووالي صيدا، الدنكزلي، وطلب من الدولة توليته مصر والشام[٢٩].

لم ينقذ اهل الشام، من الغازي أبي الذهب، سوى الموت الذي داهمه، في ١٠ حزيران/ يونيو١٧٧٥، في مدينه عكا، ما أتاح الفرصة لظاهر، لكي يعود إلى عكا، بعد انسحاب القوات المملوكيه، ولكن صيدا خرجت

من يده؛ بتعين والٍ عثماني عليهما.

في ٧ أب/ أغسطس١٧٧٥، وصل أسطول عثمان، بقيادة القبطان حسن باشا إلى حيفا، فاستولى عليها، وتوجه في ٢١ من الشهر نفسه، إلى عكا، حيث تحصَّن ظاهر. وقد ذُكر بأن مفاوضات جرت بين الطرفين، حول تسليم ظاهر ما تأخر عليه من أموال الميري، وان مستشاره، إبراهيم الصباغ، ورئيس دفاعه أحمد دنكزلي، قد ثنيا حسن باشا عن ذلك، كما ذكر أيضاً، بأن حسن باشا نفسه، لم يكن حريصاً على نجاح المفاوضات، وقد رفض دنكزلي والقوات المرتزقة من المغاربة. التي كانت تدافع عن عكا، القتال، واضطر ظاهر إلى الهرب، وقُتل، غير بعيد عن عكا، بأيدي مغاربته، واعتقل إبراهيم الصباغ، وقتل دنكزلي في العام التالي [٣٠].

تشرذمت أسرة ظاهر، بعد وفاته، فمن أبنائه من قُتل، أو نُفي، وبرز بعض أحفاده في وظائف إدارية، في استانبول، وذُكر بأن بونابرت، إبان حملته على فلسطين، في عام ١٧٩٩ حاول، عبثاً، الاعتماد على أبناء ظاهر فيها [٣١].

هكذا، انهارت إمارة الزيادنة، في فلسطين، بعد أن دامت قُرابة ثلاثة أرباع القرن، استطاعت خلالها أن تجعل من منطقة الجليل مركز الثقل السياسي والاقتصادي، في بلاد الشام، ككل، واستطاع ظاهر ان يجعل مدينة عكا آهلة بالسكان، وميناء تجارياً نشطاً، بعد أن كانت مدينة صغيرة المساحة، وقليلة السكان، وذلك بتحصينه القلاع فيها.

الانهيار:

لقد أسهمت عوامل عدة، في انهيار إمارة ظاهر العمر، فكما رأينا أن زواجه من نساء ينتسبن إلى قبائل معادية لبعضها البعض، قد أفاده، في بادئ الأمر، في توسيع سُلطانه، إلا انه أدى لاحقاً، إلى حرب أهلية، تمثلت في تمردات أبنائه عليه، وكثرة أعدائه، ومنافسيه. وثمة عامل آخر متوارٍ، فقد طوَّر ظاهر اقتصاد المنطقة، التي وقعت تحت نفوذه، وذلك بتعامله مع التجار الفرنسيين، مما مكَّنه من إقامة الحصون، واستئجار القوات العسكرية، إلا أن ذلك غدا عامل ضعف، بعد الحروب الداخلية، وما أدت إليه من تهديدات الموانىء، وقطع الطرق، فضلاً عن عامل قوي، وهو الحروب الخارجية، التي واجهها ظاهر، خاصةً مع ولاة الشام، وخيانة بعض العونة.

رغم ما وصلت إليه إمارة الزيادنة من تدهور، إلا أن كثرة المؤرخين أشادوا بالجانب الإيجابي لظاهر العمر، فقد اهتم بالزراعة، وأعفى الفلاحين من دفع الأموال، في السنوات المجدبة، ولطالما قدم لهم البذور والمساعدات، كما نشَّط التجارة بين الداخل والساحل، وشيَّد الأبنية، وطوَّر العمران، واتسم بالتسامح الديني، فكان من بين وزرائه نصارى، كما حرص ظاهر على نشر الأمن والطمأنينة، في كل البلاد التي دانت له، وتميَّز بإحسانه على الفقراء [٣٢].

وبعد، فإن إمارة الزيادنة، كانت بدوية الطبيعة، استطاع ظاهر أن يرتقي بها إلى أعلى مستوى ممكن، طيلة الحكم العثماني، وكان ظاهر أول من قام بحركة استقلالية، في العهد العثماني، كرد فعل على ما وصل

إليه العثمانيون من استبداد وتدهور، في آن. واستطاع أن يجذب إليه معظم فئات الشعب، كما نجح في تكوين علاقات صداقة، مع من كانوا، سابقاً، في صفوف الأعداء، إلا أنه، في الوقت نفسه، فشل في تكوين أُسره موحدة، تستطيع أن تواجه المصاعب والعقبات، التي أنهت حُكم ظاهر. لقد حاول نسج تحالف مع عشائر، من خلال الزواج منها، بدل أن يقيم تحالفاته على أساس سياسي، ومن منطلق المصالح الاقتصادية المشتركة. وبدلاً من اعتماده على أبناء الشعب، فإنه اعتمد على المرتزقة من المقاتلين، الذين انقلبوا عليه، في أول سانحة. أما تحالفاته الدولية، فحدِّث ولا حرج، حيث اعتمد على عدو الدولة العثمانية، ونعني بها روسيا، بينما ليس صحيحاً أن " عدو عدوي صديقي "، فقد يكون أشد عداوة، تماماً كما استجار العرب ببريطانيا، خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، فكانوا كمن استجار من الرمضاء بالنار، حيث تخلَّص العرب من حكم عثمانى كهل، خائر، ليحلوا محل استعمار بريطاني وفرنسي فتي، تمكَّن من زرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي. وإن كان من الظلم محاكمة ظاهر العمر بمعايير زماننا هذا.

* * *

مراجع الفصل التاسع عشر

(١) لمزيد من التفاصيل انظر:
لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية الحديثة**، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي، معهد الاستشراق، موسكو، ترجمة: عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٥، ص ٧ - ٩، ١٨، ٢٤.

(٢) عمر الصالح البرغوثي، خليل طوطح، **تاريخ فلسطين**، مكتبة فلسطين، القدس ١٩٢٣، ص ٢٨٨، ٢٣٠.

(٣) عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦**، دمشق مكتبة أطلس، ١٩٧٤، ص ٧٨.

(٤) البرغوثي، طوطح، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٥) ميخائيل الصبّاغ، **تاريخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد**، نشرة قسطنطسن الباشا، حريصًا، مطبعة القديس بولس، ١٩٣٥، ص ٢٥، ٣١ - ٣٥.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٦ - ٥٢.

(٧) عبود الصبّاغ، **الروض الزاهرة في أخبار ظاهر**، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس، رقم Arabe 4610، ورقة ٧ (أوردتها: **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: د. عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين** (١)، ص ٧٠٩).

(٨) أحمد البديري الحلاق، **حوادث دمشق اليومية**، نقحها محمد سعيد القاسم، ووقف على تحقيقها ونشرها أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٩، ص ٢١ - ٢٩.

(٩) **المصدر نفسه** ص ٤٢ - ٤٧.

(١٠) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني المجلد الثاني ط١، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: د عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين** (١)، ص ٧١٠).

(١١) عبود الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٩ب - ١٠ أوردها (رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٠.
- ميخائيل الصباغ، مصدر سبق ذكره ص ٤٦.

(١٢) Rafeq, Abdul - Karim, the province of Damascus, 1723 - 1783, Beirut, Khayats 1970, pp. 197 - 198.
(أوردها: رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٠).

(١٣) محمد أحمد درهمان، **زلزال سنة ١١٧٣ هجرية، المشرق ٤٢ لسنة ١٩٤٨**، ص ٣٣٣ -

٣٤٧، (أوردها: رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١١).
(١٤) ميخائيل الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٢ - ٨٣، ٨٦ - ٨٧.
(١٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٣.
(١٦) ميخائيل الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٧ - ٨٩.
(١٧) الحلاق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٢.
(١٨) لمزيد من التفاصيل، انظر:
الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٣.
(١٩) انظر تفاصيل وصول علي بك إلى السلطة، والأسباب التي دفعت به إلى غزو بلاد الشام في:
عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦ - ١٧٩٨م**، ط٢ دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٦٨، ص ٤٠١ - ٤٠٨.
(٢٠) انظر: نص البيان (الفرمان) في:
حيدر أحمد شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزار، نشرة انطونيوس شبلي وأغناطيوس**، عبده خليفة، بيروت، مكتبة انطوان، ١٩٥٥، ص ٤٢ - ٤٤.
(٢١) حسن بن الصديق، **غرايب البدايع وعجائب الوقايع**، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين الغربية، رقم ٤١٧ we(II) و ٩٨٣٢ ورقة ١١ أ، ١١ ب، ١٧ أ، أورده (رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٥).
(٢٢) لمزيد من التفاصيل، انظر:
- **المصدر نفسه**، ورقة ١٠ ب، ١٢ أ.
- الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٥.
(٢٣) انظر تفاصيل ذلك في:
Rafeq، **مصدر سبق ذكره** .PP. 257 - 259.
أورده (رافق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٥.
(٢٤) لمزيد من التفاصيل، انظر:
الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٦.
(٢٥) انظر مناقشة الأسباب التي حملت أبا الذهب على الانسحاب في:
Rafeq، **مصدر سبق ذكره** .PP. 271 - 277.
أورده رافق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٦.
(٢٦) انظر تفاصيل ذلك في:
- ابن الصديق، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٦٩ ب - ٧٤ ب.
- ميخائيل الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٠ - ١٠١.
(٢٧) لمزيد من التفاصيل انظر:
- نادر، **تاريخ سورية في العصور الحديثة، دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني**

(١٥١٦ - ١٩٠٨)، دمشق، د. ن، د. ت، ص ٨١.

- حيدر أحمد شهاب، **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**، ج١، د. ن، د. ت، ص ٩٣ - ٩٤.

(٢٨) انظر:

- عبود الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٢٦ ب - ٢٧ أ (أورده: رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٧).

- شهاب. تاريخ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣.

(٢٩) لمزيد من التفاصيل، انظر:

- العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٢.

- عبود الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٣٠ أ، ٣٣ أ.

(٣٠) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٧.

(٣١) توفيق معمّر، **ظاهر العمر**، الناصرة، مطبعة وأوفست الحكيم، ١٩٧٩، ص ٢٥٩ - ٢٦٢.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل انظر:

- العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٤.

- قسطنطين خمار، **ظاهر العمر الزيداني، الثائر الوطني**، دمشق، دار المبتدأ، ١٩٩٢، ص ٢٤ - ٢٨.

* * *

obeikandl.com